١٢

تشيكوسلوفاكيا.. ودورها الخفي!!

لو أننى قلت لأحد من أجيال الشباب الذين يتابعون بعض هذه الأحاديث أن تشيكوسلوفاكيا كان لها دور كبير في حرب الاستنزاف في مصر لبدا القول غريباً لأنه يبدو لأول وهلة أن تشيكوسلوفاكيا بعيدة جداً عن مصر.. ومن الممكن أن يتصور أحد أن دور تشيكوسلوفاكيا قد اقتصر على إرسالها صفقة سلاح مما كانت تنتجه مصانع سكودا في ذلك الوقت.. لكن أيضاً لم يكن الموضوع متصلاً بالسلاح ولكن كان متصلاً اتصالاً مباشراً بالسياسة الداخلية والأوضاع الداخلية لتشيكوسلوفاكيا.. وهذا أظنه يصدق ويؤكد نظرية أن السلاح امتداداً للدبلوماسية بطريقة أو بأخرى.. وأن كل بلد في واقع الأمر يمر بثلاث مراحل وهو يتحرك إلى مستقبله وأهدافه.

- المرحلة الأولى وهو يبنى قدراته..
- المرحلة الثانية وهو يعرض هذه القدرات لتؤكد للآخرين دون أن يفعل هو شيئاً أن له دوراً.. ومهابة.. وقدرة مكتملة.
- والمرحلة الثالثة استعمال هذه القدرة بكل وسائلها.. وأولها الاقتصادية والصناعية والتكنولوجية.. والعلمية والثقافية.

وفي آخر هذه القدرات كلها تأتى الدبلوماسية.. ثم يأتى السلاح كتقريب وجهين لعملة واحدة لتحقيق أهداف أى بلد تريد أن تتقدم.. ويريد أن يؤكد لنفسه مكانة ومكاناً في وسط هذا العالم الذي أصبح في واقع الأمر كما يقال قرية واحدة.

وهنا وأنا أتحدث عن تشيكوسلوفاكيا.. وحرب الاستنزاف.. وأقصد هنا تحديداً الشهور الحاسمة وهى يوليو وأغسطس سنة ١٩٦٨ وهذه هى الفترة التى كان فيها عبد الناصر في موسكو يتحدث مع قيادات الاتحاد السوفييتى في أن الظروف تقتضى إحداث نقلة نوعية من المقاومة المتفرقة إلى مقاومة منظمة.. وهذا يحتاج إلى إمداد بأنواع جديدة من السلاح خصوصاً في مجالات الصواريخ.. والحرب الإلكترونية إلى آخره.. وكنت أقول أن الرئيس عبد الناصر ترك الفريق (عبدالمنعم رياض) وهو العسكرى المسئول عن التخطيط للمعركة في ذلك الوقت في موسكو لاستكمال هذه المحادثات.. وليستكمل عسكرياً ما بدا أنه مواضع سياسية.. ونحن وفي المناقشة السياسية وكان (جمال عبد الناصر) موجوداً هناك.. وكان (جمال عبد الناصر) يتحدث.. ويلفت نظر الاتحاد السوفييتى إلى وجود هجمة استعمارية واضحة تقودها الولايات المتحدة الأمريكية.. وهذه الهجمة تستهدف في المقام الأول حركة الاتحاد الوطنى.. ثم أوروبا الشرقية.. ثم تطويق الاتحاد السوفييتى وحصاره.. الذي سقط فيما بعد بالفعل لأن هناك متغيرات حدثت في العالم.

ظل (عبدالمنعم رياض) في موسكو بعد أن غادرنا ليومين.. وعاد بعدها يقدم تقريراً عن مهمته التى كانت ناجحة.. ولم يُستجب خلالها لكل طلباته.. وابتعد القادة السوفييت عن المحادثات.. وتركوا المناقشات للعسكريين والذين كانوا أكثر تنبهاً للأخطار المحيطة بالكتلة السوفييتية من القادة السياسيين.. فالقادة السياسيون متنبهون.. ولكن القادة العسكريين بشكل أو بآخر يشعرون بالحافز للعمل.. ويشعرون بضرورة أن يأخذ عرض القوة دوراً أكثر فاعلية.. في حين أن القادة السوفييت متحفظون لأسباب طويلة تحدثت عنها قبل ذلك.

ويعود (عبدالمنعم رياض) وهو يعتقد أن المحادثات نجحت.. وأنه حصل على أقل تقدير على٨٠٪ مما كان يطلب خصوصاً في مجال الحرب الإلكترونية.. وحاول إقناع القادة السوفييت العسكريين بنقل جبهة بأكملها إلى شاطئ القناة.. لكن القادة العسكريين في الاتحاد السوفييتى لم يكونوا ليتصوروا ذلك في هذا الوقت.. وعاد (عبدالمنعم رياض)يقول إنهم تفهموا الحاجة الشديدة للاشتباكات إلى ما سموه إغارات.. وأنه لا بد من أن نتقدم وأن تجرى عمليات عبور متفرقة على الجبهة حتى تمنع تماسك الإسرائيليين في خطهم الدفاعى.

وعاد (عبدالمنعم رياض) وكان مطمئناً إلى أنه يستطيع أن يخطط لعمليات إغارة واسعة.. وبدأ يحكى عن الكلام الذي حدث بينه وبين القادة السوفييت العسكريين وبدأ يرتب لعمليات أكبر وأوسع نطاقاً لما كان يحدث من قبل وبدأ يعمل ترتيباته.

وكان (عبدالمنعم رياض)يتحدث عن عمليات كثيرة يصفها بأنها ليست فقط إقلاقاً.. وليس فقط اشتباكاً.. ولا قتالاً.. أو نزيفاً للدماء.. ولكن في رأيه أن هذه العمليات بمثابة مجسات لمواقع الضعف في إسرائيل.. والمناطق التى يمكن أن يطول منها إسرائيل.. وهى مجسات ستساعده على وضع ما يسمى إطار خطة.

وفي ذلك الوقت كانت فكرة الإغارات مقبولة.. ولكن بالنسبة للمخطط المصرى في ذلك الوقت ليس فقط عبدالمنعم رياض.. ولكن كل هيئة أركان الحرب المصرية أمامها عملية الإغارات الواسعة في حرب الاستنزاف تكون بمثابة مجسات للاختبار على الطبيعة لنوعية المقاتل.. وليس هو من يختبرها ولكن العسكرى والمقاتل الشاب الجديد من يختبرها.. ويريد معرفة نقط الضعف في السلاح والفراغات الدفاعية.. وهو في ذلك الوقت أرادها أن تكون عملية مجسات تمهد للتصور لإطار خطة القتال الحقيقية.. وبالفعل لم تمض شهور حتى بدأت تلك المقدمات تتبلور في إطار خطة.. وذلك بفضل زيارة (عبدالمنعم رياض) للسوفييت.. وما نتج عنها.. خصوصاً في مجال الحرب الإلكترونية.

كما كان (عبدالمنعم رياض) وغيره من القادة يريدون معدات تنصت وفك شفرات لأنه بدا أن حرب الاستنزاف معمل اختبارات أو مجسات.. حسب ما كان يقول (عبدالمنعم رياض).

وكان في ذهن (عبدالمنعم رياض) تصور معين لم يكتمل بعد في إطار خطة.. والعسكريون السوفييت تفهموا أنه لا يمكن أن يتحدث أحد على حرب حقيقية مؤثرة دون اشتباك أو تلاحم قوات.

وبدأ يكون هناك إحساس بالسلاح الجديد.. وبدا هناك استعداد للقيادة السياسية في مصر بأن تأذن في فتح الاحتياطي الاستراتيجي.. وأن تخرج أسلحة لم تخرج من قبل.. وتدخل قوات لميدان القتال لم تكن دخلته.. لأنه باستمرار في القيادة العليا للقوات المسلحة لابد أن يكون لديها احتياطى من المعدات والرجال جاهزون لإخراجهم عند اللزوم.. وهذا ما يجب أن تحافظ عليه.

ولكن لم تعرف أنه سيأتى لها إمدادات وبدأت هذه الإمدادات تأتى.. وانتظار.. وشحن .. ومواعيد وصول إلى آخره.. ويجب أن تبقى القيادة مستعدة دوماً.. ويجب ألا تقلق تلك الطاقات التى تنتظر وضعها تحت التصرف في حالة الطوارئ.. وفي هذا الوقت بدأت تنشط حرب الاستنزاف بطريقة معقولة.

ولكن فجأة حدث شيء في تشيكوسلوفاكيا لم يكن أحد يتصور أنه سيصل لهذا المدى.. ففي هذا الموعد كنت مع موعد مع الرئيس جوزيف تيتو في جزيرة برونى.. وهناك جلست مع الرئيس تيتو ساعتين وربع الساعة.. وكتبت هذا الحديث والذي قدر له أن يكون سبباً لمشاكل لم أكن أتوقعها.

وجلست مع الرئيس تيتو وسألته عن التحدى الأمريكى الذي كان موجوداً.. وكان وقتها قد صدر كتاب لمؤلف فرنسى مهم اسمه شوريبر كتب أن التحدى الأمريكى سوف يكتسح العالم.. وقال تيتو أنه لم يقرأ هذا الكتاب لكنه سمع عنه.. وأنه اعتقد أن هذا العالم أعقد جداً من أن تتحكم فيه قوة واحدة.. وأنه من الممكن أن ترى جهودا أمريكية في الظروف التى نعيشها من حرب باردة وغيرها وفي ظهور أمريكى لكنه لا يعتقد أن هذا موضوع يمكن أن يستمر.

تحدثت معه عن الأوضاع الراهنة في الكتلة الشرقية وكان عبد الناصر قد تحدث عنها في الاتحاد السوفييتى.. وتوقف تيتو طويلاً أمام ما حدث في تشيكوسلوفاكيا وظهر من سنة ١٩٦٣ أن الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى متأثر بجهود كبيرة جداً موجودة شارك فيها سواء الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى أو الحزب الشيوعى الإيطالى والذي قام بدور مهم جداً في تجديد شباب الفكر الشيوعى.. وأن فكرة

الديكتاتورية أصبحت متعارضة مع العصر وبقى هناك دور للإنسان ووجه آخر للشيوعية ووجه إنسانى للشيوعية والحرية الضرورية.

وبدا في أول يناير سنة ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا شيء مهم جداً وهو أن رئيس الحزب الشيوعى السابق سقط وجاء بعده رجل معروف بآرائه التحررية وبدأ يقول أن الشيوعية لا تعنى قهر حرية الإنسان وأن الاشتراكية أو الشيوعية لا يمكن أن تحقق أى عدالة اجتماعية ولا يمكن أن تتحقق عدالة اجتماعية بدون حرية فردية بدون حرية صحافة وغيرها.

وبدا أن هذا التفكير يهدد التفكير التقليدى الموجود في القيادة الشيوعية الموجودة في ذلك الوقت في موسكو وبدأ يظهر أن السوفييت غير راضين عن ذلك خصوصاً أن تشيكوسلوفاكيا لم تكن بلداً عادية.. فبراج بالتحديد كانت العاصمة البديلة لفيينا في وقت والذي كان يذهب ليطل على هذه العاصمة يعرف إلى أى مدى كانت هذه العاصمة تعيش أزهى عصور النهضة الفنية والفكرية والثقافية.

وبدا أن ما يحدث في تشيكوسلوفاكيا يهدد الاتحاد السوفييتى.. وبدا الكلام عن الحرية الشخصية.. وحرية الرأى والأحزاب.. وبدت القيادة السوفييتية تتحسب.

وبدا كلام دوبشك يرن خصوصاً إذا وضع بجوار حركات سبقته قمعت في وقتها مثل حركة بولندا وحركة في ألمانيا الشرقية قمعت.. وحركة في المجر قمعت وقت السويس.. وبدا أن يكون هناك تأثيرات كثيرة وتداعيات.. شعرت وأنا أقابل الرئيس تيتو وهو يتحدث عما حدث في تشيكوسلوفاكيا ويتحدث بتفصيل.. وكنت مهتماً أن أسمع منه.. وكتبت عنه في الحديث.. ولكن قبل أن يُنشر هذا الحديث والذي كنت قد أجريته يوم الجمعة ٧ يوليو بعد رحلة موسكو مباشرة.. وعندما جئت لنشره قلت للرئيس تيتو قبل أن أغادر.. وفي حقيقة الأمر كان حوارا وكان هناك مترجم لأن تيتو كان يتحدث بالصربية ولكنه تحدث بالإنجليزية لبعض الوقت.

وطلب منى الرئيس تيتو أن يكون الحوار في مقالتى يوم الجمعة ووافق على ذلك.. ولكن أثناء تحضيرى للحديث لأنشره مع المقال الأسبوع القادم فوجئت بأننى تلقيت رسالة من مدير الوكالة اليوغسلافية الرسمية يقول فيها أنه حصل على نسخة من الحديث.. وأنه سيذيعه على الفور ويسألنى عن التنسيق معهم.. لكننى كتبت لرئيس التحرير أن ذلك يخالف ما تم الاتفاق عليه.. وطلبت من مكتب الرئيس مراجعة ذلك

بعد أن وافق الرئيس تيتو عليه.. ورد مدير الوكالة وقال لى أن الرئيس لا يزال مصراً على إذاعة الحديث.. واتصلت أنا بمكتب الرئيس تيتو.. ورد عليّ السفير جرجل الذي كان مختصاً بالشئون الثقافية والفكرية.. فقال لى أن أعطيه فرصة للرد.. فلم أنتظر.. واتصلت بنائب الرئيس كارلن.. ورجوته أن يضم صوته مع أصوات من تحدثت إليهم لكى يتم تأجيل الموضوع.. وبعدها حدثنى مدير الوكالة قائلاً أن الرئيس لا يستطيع الانتظار في الجزء الخاص بتشيكوسلوفاكيا.. وبعدها حدثنى نائب الرئيس يقول لى هل من الممكن أن نقسم الحديث لنصفين.. نصف لتشيكوسلوفاكيا يذاع أولاً ولا ينتظر.. لأنه هناك احتمال حدوث تطورات فوافقت على الفور.. ونشرت ما يتعلق بتشيكوسلوفاكيا في نفس الوقت.. وبعد ذلك في يوم الجمعة وهو اليوم الطبيعى الذي كان مقرراً نشرت باقي الحديث.

الرئيس تيتو كان يعتقد أن الجزء الخاص في حديثه عن تشيكوسلوفاكيا هو تحذير للاتحاد السوفييتى من عواقب القيام بأى عمل عنيف ضد تشيكوسلوفاكيا.. ولم يكن يمضى أسبوع أو عشرة أيام وحدث تدخل الاتحاد السوفييتى في تشيكوسلوفاكيا.. وفي هذا التدخل حدثت أشياء غريبة.. لأن السفير السوفييتى في مصر ذهب للإسكندرية ليقابل (جمال عبد الناصر) ويبلغه أنهم سيتخذون إجراءات ضد تشيكوسلوفاكيا.

طلب السفير السوفييتى موعداً لمقابلة الرئيس.. وكان متعباً للغاية وقتها وكان في المعمورة يأخذ إجازة بعد رحلة موسكو.. فذهب السفير السوفييتى يلحق به إلى هناك.. وذهب إلى المعمورة ليقابل الرئيس قبل الفجر.. وأيقظ الرئيس حتى يسمع الرسالة التى تأتى له من القادة السوفييت.. والتى تقول له أن الأوضاع في تشيكوسلوفاكيا تتدهور وإن القيادة التشيكوسلوفاكية الجديدة تستجيب لدعاوى أمريكية.. ونحن كنا نعرف بالفعل بوجود تحريض أمريكى كبير ومحطات إذاعة سرية إلى آخره.. وأنهم عرفوا بدخول جهاز المخابرات الأمريكى الـ (C.I.A) وأنهم مضطرون إلى اتخاذ إجراءات عنيفة.. والقيادة التشيكوسلوفاكية الجديدة منساقة إلى حيث لا تدرى.. والاتحاد السوفييتى لا يمكن أن يقبل هذا وأنه يطلب من أصدقائه أن يتفهموه.

وبعد أن سمع الرئيس (جمال عبد الناصر) هذه الرسالة أرسل خطاب تغطية من مكتبه لـ(محمود رياض) وزير الخارجية لكى يعرف ما الذي حدث.

ولكن كان من الواضح أن الاتحاد السوفييتى أخذ أبعاداً أكثر من تقدير أى أحد لأنه ببساطة في ليلة ٢١ و٢٢ يوليو هبطت قوات بالبراشوت احتلت مطار براج.. ثم دخلت أربع دول من حزب وارسو.. والوحيدة التى امتنعت كانت هى ألمانيا الشرقية.. وإذا بقوة من ٢٥٠ ألف جندى تحتل تشيكوسلوفاكيا.. وبدا الأمر أنه أمام وضع في منتهى الخطورة.. والعالم كله كذلك.. لأن الكلام الذي حذر منه تيتو في حديثه معى.. والذي طلب إذاعته مبكراً قبل موضوع الحديث.. وإنه كان حريصاً ألا ينتظر مقالتى ٣ أيام.. وبدا أن ما رآه.. وما كان يخشى منه قد تحقق بالفعل.. وحدث تدخل كان من أكبر الأخطاء التى وقع فيها الاتحاد السوفييتى.. واحتلال البلد بهذه الطريقة بدا أنه غير معقول وبدا أنه غير مقبول في أجزاء كثيفة جداً في العالم.

وبالعودة لوضعنا هنا كنا في موضع بالغ الصعوبة فهناك قضية دولة.. وهناك قضية إحراج للاتحاد السوفييتى خطيرة جداً وهى أيضاً تؤثر علينا.. وهنا قضية أخلاقية ومعنوية بالدرجة الأولى.. ونحن نتحدث ونحن دولة من دول عدم الانحياز وبالرغم مما تعرضنا إليه.. واحتياجنا للاتحاد السوفييتى احتياجاً حيوياً فإن هنا قضية معنوية لا يستطيع أحد أن يهرب منها.

ولكن بالفعل في القاهرة عاد الرئيس عبد الناصر من المعمورة وأصبح هناك مناقشة عن الموقف الذي نتخذه وأتذكر أنه في ذلك الوقت أرسل الرئيس تيتو جواباً لعبد الناصر.. وأنه يريد أن يحيطه علماً بالتطورات التى حدثت في تشيكوسلوفاكيا وأثرها على العلاقات في أوروبا وأثرها على العالم.

وأنه حاول نصحهم بأن هذا هو التطور الطبيعى للأمور.. وأنه علينا أن نقبل الأوضاع مثل ما نقدها خرشوف في تقريره السرى للجنة المركزية سنة ١٩٥٦ وأنها لم تعد قادرة على البقاء وأنه إذا أُريد للاتحاد السوفييتى أن يعيش.. ويتسيد الوضع في أوروبا الشرقية فعليه أن يقبل أن العصر الجديد جاء بمتغيرات لا يستطيع أحد تجاهلها وبالفعل ليس من الممكن.. وحتى إذا قال لى أحد في ذلك الوقت أن الـ (C.I.A) كانت تعمل في تشيكوسلوفاكيا بنشاط وأن هناك محطات إذاعة بكاملها نقُلت إلى النمسا.. وإلى الحدود مع تشيكوسلوفاكيا.. فلماذا يأتى الأمريكان محاولين استغلال الأوضاع في تشيكوسلوفاكيا.. فهنا هناك فرق بين الاستغلال.. والاختراق.. فهو يستغل أوضاع حقيقية لها وجود.. وهو يحاول استغلالها.. وبالتالى هناك فرق بين أن يستغل.. وأن يخترق وهناك أسباب حقيقية لغضب أناس كثيرين من ما يجرى في تشيكوسلوفاكيا وفي غيرها من البلدان.. وهناك رفض لهذا كله.

❖❖❖